الحديقة
جنة الأرض في العمارة الإسلامية

وراء الأسوار الشاهقة للحصون والقلاع، وخلف الجدران السامقة للبيوت والقصور، وبعد اجتيازك أعتاب الأبواب المغلقة على أصحابها، في كل آثار الحضارة الإسلامية، ينفتح أمامك عالمٌ بديعٌ يُبْهِجُ الحواسَ: إنه البستان، جنة الأرض في العمارة الإسلامية.

بقلم وعدسة: أشرف أبو اليزيد

حرص المعماريُّ المسلمُ على أن يكون داخلَ البناء الذي شيَّده، صورة مصغرة من العالم خارجه. فإذا حبست الأنظار عن الأنهار، فليكن الجدول الذي يسيل ماؤه فوق المدرج، أو من قناة إلى أخرى، بديلا ومعادلا موضوعيا لكل أنهار العالم الخارجي. إن النهر الداخلي المصغر يناسب وظيفة المكان، الذي حرصت عليه عمارة العصور الإسلامية، فظهرت مكوناتها تعكس وظيفتها دون تكلف أو تصنع، وإنما في قالب جمالي مبدع.

وهكذا اختصر الفناءُ في البيت، وجسدت الباحةُ في المسجد، ومثَّل البستانُ في القصر، كل الصيغ المعمارية للعالم في الخارج. سترى شرفات الغرف المطلة على الداخل تتراص مثل بيوت مصغرة، وترى النباتات والأشجار تتزين مثل غابات ومزارع، وترى الشواهد الكتابية والمصورة تقدم صورة من الحروف والرموز التي يضج بها العالم. بل لعلك إذا تأملت العقود الحجرية المركبة والبلاطات الصخرية المنحوتة وجدتها نخلا مثمرًا، وطيورًا حرة، جسدها الفنان، صورة منقولة عن نباتات العالم وكائناته الحية.

ستختزلُ الحدائقُ في العمارة الإسلامية كلَّ أفكار الحياة، كما أنها ستختزن أيضا كل أبجديات البناء، فأنت ترى في الحديقة التقليدية بالعمارة الإسلامية الغَرْسَ، والمياه، وتدرك الكتلة والفراغ، وتحس الساكن والمتحرك، وتتابع المحلق فوقك، والمتحلق حولك. تسمع الخرير يأتيك من الجهات الأربع، وربما يمر صوته تحتك، وسترى المياه

أو لا تراها، تجسيدًا للآية القرآنية الكريمة في وصفها للجنة بأنها «تجري من تحتها الأنهار». المياه هنا تستقبلك في جدول تياره الرقراق، أو نافورة ماؤها مراق، أو من فم صنبور عذب المذاق.

تتجه مباني الحديقة نحو الجالس في وسطها، وتعبر عن طبيعة الحياة الاجتماعية والظروف المناخية الأمر الذى استبدل الفراغ الخارجي بالفناء الداخلي حتى يتم استيعاب النشاط الخاص بالسكان وبذلك تظهر المباني الاسلامية متلاصقة ليس بينها أي مسافات أو فراغات، عكس ما نراه في قلب البستان.

سيقوم هذه الأبنية حول الحديقة على مواد محلية مثل الحجر أو الآجر، وتتخذ الفتحات المطلة ـ من نوافذ وكوى وشرفات ـ اتجاها طوليا، وتظهر الأعمال الخشبية ـ سواء نقشت بالحفر أو رقشت بالبروز أو تركت مصمتة ـ بلونها الطبيعي مؤكدة مرة أخرى صراحة التعبير، وأيضا لتنقل اللون الطبيعي أو تنسخه، من الخارج إلى الداخل. وحين يزين البناء، بالقاشانى أو الكاش المزخرف، وتغطى الجدران والممرات بالرخام الملون أو الفسيفساء، سنجد أينما ولينا البصر استدعاء لصور أوراق النباتات، ودرر عقود الثمر، وانثناءات البان الراقصة.

ومن الطبيعي أن نقول أن كل ركن في الحديقة يرد على ركن آخر، إنها أغنية العمارة الإسلامية التي تعزفها الآثار الحضارية، من غرناطة وقرطبة وأشبيلية في جنوب الأندلس الأسباني، إلى استانبول وأدرنة في تركيا العثمانية، مرورًا بآثار آسيا الإسلامية في الهند، وإيران والشام وغيرها.

ورغم اتفاق الحدائق في العمارة الإسلامية على ملامح رئيسة، أوردناها في السطور السابقة، إلا أنها كانت أيضا تختلف في ملامح أخرى. فقد عرفنا عن الحدائق المعلقة التي ظهرت في مدينة المنصور ببغداد حيث استعملت المستويات المختلفة في تصميم مثل هذه الحدائق، وعرفنا الحدائق المتاهة التي تعد خريطة تشبه فيها القنوات المائية شرايين تسري في الجسد، وتتصل، فكأنها تسري للأبد، حين تتابع حركة المياه في القنوات والنافورات بقصر الحمراء في غرناطة، أو الأفلاج التي توزع الخير عبر القنوات، ومنها الحدائق التي تكاد تصف نفسها بأنها مركز الكون، تتحلق في أركانها مقصورة وأروقة وإيوان ويتوسطها بركة بجدران رخامية، قد تحرسها الليوث، وترشهم من الوسط النافورة بمائها.

وحين يخترق الضوء الجدران عبر الشرفات، ستكمل النوافذ بزخارفها البديعة ذات الزجاج الملون صورة المشهد، حديقة مصورة على الجدران، وحديقة طبيعية في كل الأركان. وفي مدينة شيراز ـ التي اختيرت هذا العام عاصمة للثقافة الإسلامية مشاركة مع مدينة حلب ـ توجد حديقة من يدخلها يشعر أنه دخل روضا عاطرا، مما يجسد الأجواء العرفانية والشاعرية. تقع تلك الحديقة بجوار نهر جاف، وهي عامرة بأشجار البلّوط وأشجار الزينة الأخرى المتوزّعة على أطراف ممرات سحرية وخلاّبة، تتوسّطها أحواض مياه طوليّة تصبّ في حوض كبير يقع في الجهة الغربية من الحديقة، وقال المستشرق إدوارد براون بعد زيارتها ووصفها مع باقي حدائق شيراز: «إنها حدائق رائعة وسهول خضراءٍ مثمرة محصورة بين مرتفعات جبلية أرجوانية اللون متوزّعة في أطراف مدينة شيراز مركز الشعر والحكمة». وهو ما يؤكد على أن وظيفة الحديقة ليست فقط إمتاع الساكن بما حرم منه في الخارج، وإنما هي تمنحه الصفاء الكافي للخشوع، والسكينة، والهدوء أليست تتصل بالسماء عبر فضاء لا نهائي؟

وإذا كان المعماري المسلم لم يترك أثرًا إلا وزينه، فما بالنا وهذا الأثر مصنوع للزينة؟ ها هو يبرز عناصر الحديقة المعمارية بالزخارف، فيجمع بين أكثر من لون من ألوان الحجر الجيري في بناء الواجهات والعقود، وها هو يستخدم الأحجار الملونة بطبيعتها ليضمن ثبات اللون ومقاومته للكشط، وها هو يبقي الدرجات اللونية على تعددها، وها هو يزاوج ويمازج بين الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية

ندورُ حول الحوض الرخامي لنافورة حديقة دار عائشة في قصور غرناطة. كان ذلك الحوض يتوسط الحديقة قبل نقله لترميمه إلى متحف الحمراء. يتخذ الحوض شكل دائرة مفصصة ذات نقوش دالية، خارجية وباطنية، أما النقش الكتابي البارز، والذي يعدّ نموذجا للكتابات الحدائقية، فيتضمن قصيدة ابن زمرك، بالخط الثلث، التي يقول فيها:

لي في الحُسن أجلُّ الرُّتبِ
صِفتي تعجبُ أهْلَ الأدبِ

ما رأى أعظمَ مني ساحة
أحَدٌ في مشرق أو مغربِ
لا ولا نال كمثلي ملكٌ
قبلُ في عجْم ولا في عربِ
أنا حقا فلك الماء بدَا
للأنام ظاهرًا لمْ تُحجبِ
لجة عظيمة ساحلها
من بديع المرمر المنتخبِ

وتعد نافورة بهو الأسود في حدائق قصور الحمراء بغرناطة أشهر نوافير البساتين في العمارة الإسلامية، وفيها أيضا قصيدة لابن زمرك، جاء فيها:

ألم ترَ أن الماء يجري بصحفها ولكنها سدَّت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه وغيض ذاك الدَّمعُ إذ خَاف واشيا

وكثيرًا ما رأينا الأسود تحرس النوافير، كأنها تزود عن نبع الحياة، ولذلك فإن حديقة الأندلس التي شيدت على نيل القاهرة، لم تنس أن تضع ليوثا مماثلة تحرس بستانها.

ولم يحتفل الشعر وحده بالحديقة وما بها، بل سجل النقاشون والرسامون والفنانون آيات معمارية تألقت فيها الحدائق، وتحتفظ المكتبة القومية في لندن بمخطوطة بغدادية (١٣٩٦م) لفن عمارة الحدائق في القصور، وفي مخطوطة بابور نامه بمتحف فيكتوريا وألبرت بلندن معاينة الملك بابور لنظام الري في حديقة قصره، وفي المكتبة الفاتيكانية مخطوطات أندلسية توضح العجلة المائية (الساقية) التي ترفع الماء من النهر لري البساتين (حوالي ١٢٠٠م).

ولعل الحديقة في معمار الآثار الإسلامية كانت دليلا على نبوغ العلماء المسلمين في علم النبات، وكانت العلاقة الوثيقة بين النبات والطب سببًا في العناية بالنباتات وإنشاء الحدائق لها، فقد كان تسعة أعشار العقاقير المتداولة في العلاج نباتية؛ حتى كان يطلق على الصيادلة في وقت من الأوقات اسم العشابين.

ويظهر اهتمام العرب بالعلوم النباتية والبستنة حين نرصد أدبياتهم، فقد صنف الخليل بن أحمد الفراهيدي في قاموسه العين للنباتات والأدوية، ومثله فعل المفجع البصري في كتاب الشجر والنبات، ومثلهما ابن خالويه في كتاب الشجر، وكتب ابن السكيت عن النبات والشجر، وساهم الحسن بن الحسين السكري بكتابه النبات، ووثق الدينوري، أبو حنيفة النبات والشجر، ولأبي حاتم السجستاني كتاب النخلة؛ وكتاب الزرع؛ وكتاب الكروم؛ وكتاب النبات؛ وكتاب العشب؛ عدا ما دونه أبو سعيد عبدالملك الأصمعي في كتاب النبات والشجر، وخطه أبوعبيدة البصري في مؤلفه الزرع، وما ألفه هشام بن إبراهيم الكرماني بعنوان كتاب النبات، ووضعه أبوعبدالله محمد بن زياد ابن الأعرابي باسم صفة النخل، صفة الزرع؛ النبت والبقل؛ كتاب النبات.

وإذا كان بالحديقة أدواء لراحة النفوس فقد اجتمعت فيها أدوية لراحة الأبدان، وكان همّ الولاة المسلمين ـ بعد العبادة ـ الاستقرار الاقتصادي القائم على الزراعة. لذلك انتشرت الحدائق والجنان التي تبدو فيها مظاهر الترف في بغداد ودمشق والقاهرة وصقلية وأشبيلية. وعندما أقام عبدالرحمن

الأول حديقته النباتية بالقرب من قرطبة غرس أول نخلة في أوروبا، ونقل إليها أول ناعورة (ساقية) لرفع الماء، وظلت حدائق الرصافة والزهراء والزاهرة وطليطلة وأشبيلية باقية مدة من الزمن تشهد ببراعة هؤلاء في الزراعة، والري والصرف وتوزيع المياه. وإذا كانت بعض من هذه الحدائق قد اختفت أو اندثرت، فقد بقي في إسبانيا حديقة القصر الملكي في أشبيلية، وجنة العريف في غرناطة، وبستان مسكن الملك الغربي في رندة.

لقد أبدع المعماري المسلم فنَوَّع في أشكال الإطار الذي يحيط بالحديقة وسوره، فجعله تارةً على هيئة مسننة تشبه رؤوس الحراب، وجعله مرة على هيئة الورقة النباتية، وطوَّر النحاتون شكل الورقة النباتية، الثلاثية والخماسية، كما أضيف للإطارات زخارف مماثلة، حتى أصبحت مثل قطعة من الدانتيل، وليصبح الفناء في المسجد، الحلقة الرابطة لكل العمائر الدينية، فالفناء رمز الحياة في حياة المسلم اليومية، هو قلب المبنى وبمثابة القلب للجسم الإنساني، ولهذا طور المعماري المسلم الفناء إلى أن تحول إلى حديقة فيحاء تنفجر فيه المياه الجارية بنافورات مرصعة بالزخارف والنقوش البديعة، وهكذا فعل في فناء البيت، وبستان القصر، وساحة الحصن. وقد أضيفت إلى أفنية الحدائق أشكالٌ من الأبنية، التي دعمت وظيفتها، فرأينا الجوسق، وهو البناء الخشبي الذي يتوسط الحديقة أو يرتكن إلى زاوية فيها، وكأنه خلوة الناسك، ويعد غرفة لتلاوة القرآن الكريم، أو مَضَافة للزوار، أو موئلا للخيل. وأضيفت أيضا النافورة التي لا تعد مجرد حلية مائية، بل ذات وظيفة سمعية بموسيقى مائها، ووظيفة بصرية بتنوعها التصميمي، مثلما هي أيضا ذات وظيفة نفعية تؤوي الطيور العطشى، وتوزع ماءها على القنوات والجداول والأفلاج لري الزهور والنباتات والأشجار. وأضيف أيضا للحديقة صنبور للشرب وحوض للوضوء، ومزهريات للزينة، وأجراس تهزها الريح فتعزف راقصة، ولتظل الحديقة جنة معمارية إسلامية على الأرض.